سيكولوجية التصوف

بقلم
السيد أبو الوفا الغنيمى التفتازانى
شيخ السادة الغنيمية

يختلف التصوف كمذهب باختلاف الأديان ، ولكنه من الوجهة النفسية ظاهرة مشتركة بين الأديان جميعاً . ومن العسير جداً أن نجد له تعريفاً جامعاً مانعاً من نواحيه الدينية والفلسفية والأخلاقية ، أما من الوجهة السيكولوجية فمن الممكن تعريفه تعريفاً عاماً فنقول إنه سلسلة متصلة الحلقات من الحالات الوجدانية الخاصة .

ولما كان التصوف حالات وجدانية خاصة فإن دراسته من الوجهة السيكولوجية تعتمد اعتماداً كبيراً على المنهج الاستبطانى فى علم النفس ، ومن ثم فهى دراسة صعبة للغاية . والمتصوف حين يعبر عن حالاته الوجدانية الخاصة بعد زوالها يقوم بعملية تذكر للماضى القريب ، والقدرة على الوصف والتحليل والتذكر تختلف قوة وضعفاً باختلاف الأفراد .

وقد يعمد بعض المتصوفة إلى التعبير عن حالاتهم الوجدانية الخاصة بطريق الرمز (١) ، فتغلب على عباراتهم صبغة الإبهام والتعقيد ، كما تكون اللغة أداة عاجزة عن التعبير عن الوجدانيات تعبيراً صادقاً ، وقد يحدث أحياناً أن يختلف اثنان من المتصوفة فى التعبير عن حالة وجدانية معينة اختلافاً لفظياً .

وإلى جانب هذه الصعوبات نلاحظ أن عبارات المتصوفة تحتمل عادة معنيين ،

(١) يعرف هذا النوع من الرمزية بالرمزية الصوفية Le symbolisme mystique وقد أشار الشيخ أبو العباس أحمد الشهير بزروق صاحب كتاب قواعد التصوف إلى أسباب الرمز فى القاعدة رقم ١٩٦ فيقول « الداعى إلى الرمز قلة الصبر عن التعبير لقوة نفسانية لا يمكن معها السكوت ، أو قصد هداية ذى فتح معنى ما رمز حتى يكون شاهدا له ، أو مراعاة حق الحكمة فى الوضع لأهل الفن دون غيرهم ، أو دمج كثير المعنى فى قليل اللفظ لتحصيله وملاحظته أو إلقائه فى النفوس أو الغيرة عليه أو اتقاء حاسد أو جاحد لمعانيه أو مبانيه » .

أحدهما لغوى ظاهر وهو ما يستفاد من ظاهر الألفاظ ، والآخر ذوقى باطن وهو ما يستفاد بواسطة التحليل والتعمق ، والوصول إلى المعنى الذوقى الباطن أمر شاق للغاية .

وقد تصادفنا بعض الحالات النفسية المعقدة جداً عند المتصوفة وهذه الحالات يصعب إدراك كنهها أو الإحاطة بمفهوماتها فهى لا تنطبق على عالم الواقع ولا يمكن إخضاعها للتجريب العلمى أو التحليل النفسى ، ومن هذه الحالات الكشف والإلهام والعلوم اللدنية التى يتحدث عنها المتصوف .

هذا وترتبط دراسة التصوف ارتباطاً وثيقاً بعلوم كثيرة منها علوم الدين والعقائد واللغة والأدب والتاريخ والاجتماع والفلسفة ، وللتصوف نواحيه الدينية والأدبية والفنية والتاريخية والاجتماعية والفلسفية .

غير أنه ينبغى أن نلاحظ أن استخدام المنهج الموضوعى وحده فى مثل هذه الدراسات لا يكفى ، فمن الواجب أن يسير المنهج الموضوعى جنباً إلى جنب مع المنهج الاستبطانى . فعبارات المتصوفة التى أودعوها فى كتبهم ليست — كما يقولون هم أنفسهم — مما يكتب أو يرخص بإيداعه فى الكتب[1] ، فإذا اعتبرنا ألفاظ المتصوفة ظواهر سيكولوجية خارجية مستقلة دون التفات إلى مضمونها الشعورى وما يحيط به من ظروف وملابسات خاصة فقد نقع فى أخطاء علمية كالحكم على المتصوف بأنه مصاب بالذهان (Psychosis) فى حين أنه يكون غير فاقد للاستبصار (Insight) ويستطيع أن يقوم بعملية استبطان (Introspection) يصف بواسطتها ما سبق أن عاناه خلال الأزمات النفسية التى مر بها .

ولقد حاولت فى هذا المقال أن أرسم صورة عامة واضحة المعالم للطريق الذى يسلكه المتصوف بوجه عام . ولما كنت قد عرفت التصوف بأنه حالات وجدانية خاصة فإن هذه الحالات — كما يبدو لى — ترتبط ببعضها ارتباطاً وثيقاً بحيث ينتقل المتصوف من حالة إلى أخرى ، كذلك فكرت فى أن أصنف هذه الحالات بحيث أجعل بينها ارتباطاً منطقياً وثيقاً ، وأردت بذلك أيضاً أن أخضع التصوف لقانون سيكولوجى عام يمكن أن يوحد بين المتصوفة على اختلافهم .

(١) ولعل أول حالة وجدانية يمر بها المتصوف هى ما تسمى بحالة الاستعداد النفسى الصوفى ، والاستعداد النفسى الصوفى قد ينشأ عن الإيحاء الخارجى أو الذاتى ،

(١) انظر مثلا كتاب إحياء علوم الدين للغزالى طبعة مصطفى البابى الحلبى ١٣٣٤ هـ ص ٤ .

وقد ينشأ نتيجة للظروف الخاصة التى يمر بها الفرد فى حياته ، وغالباً ما تكون الصدمات النفسية عاملا هاماً فى ظهور هذا الاستعداد النفسى للتصوف (١).

وهذا الاستعداد النفسى هو فترة تحضير هامة تسبق التصوف ، وهو التربة التى تنمو فيها الحالات الوجدانية الصوفية . وينبغى أن نلاحظ أن هذا النوع من الاستعداد يظل كامنا غامضا فى الفرد إلى أن تتاح له فرصة الظهور ، وقد يظهر نتيجة للتأمل والتفكير الفلسفى فى حقيقة الكون ومصير الإنسان .

ويتحدث الإمام الغزالى فى كتابه المنقذ من الضلال عن كيفية سلوكه لطريق الصوفية ، ولعل فى عباراته ما يوضح لنا حالة الاستعداد النفسى للتصوف فهو يقول « ثم لاحظت أحوالى فإذا أنا منغمس فى العلائق وقد أحدقت بى من الجوانب ، ولاحظت أعمالى وأحسنها التدريس فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة ، ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس فإذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ، فتيقنت أنى على شفا جرف هار ، وأنى قد أشفيت على النار إن لم أشتغل بتلافى الأحوال ، فلم أزل أتفكر فيه مدة ، وأنا بعد على مقام الاختيار ، أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوما ، وأحل العزم يوما ، وأقدم فيه رجلا ، وأؤخر عنه أخرى ، لا تصفو لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة إلا ويحمل جند الشهوة حملة فيفترها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها إلى المقام ، ومنادى الإيمان ينادى الرحيل الرحيل فلم يبق من العمر إلا القليل ، وبين يديك السفر الطويل وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ... ثم يعود الشيطان فيقول هذه حالة عارضة وإياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال ... فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريبا من ستة أشهر ... وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار إذ قفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوما واحدا تطييبا لقلوب المختلفين إلى فكان لا ينطق لسانى بكلمة ولا أستطيعها البتة ثم أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب بطل معه قوة الهضم وقرم الطعام والشراب ، فكان لا ينساغ لى شربة ولا تنهضم لى لقمة . وتعدى إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم فلا سبيل إلى العلاج إلا أن يتروح السر من الهم الملم ، ثم لما أحسست بعجزى وسقط

(١) راجع كتاب المنقذ من الضلال فى الكلام عن طريق الصوفية .

اختيارى التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذى لاحيلة له » .

ومن هذا يتبين لنا كيف نشأت النزعة إلى التصوف عند الغزالى ،[1] فهى كما رأينا وليدة القلق النفسى ومحاسبة النفس الإنسانية حسابا دقيقا . ولقد رأينا كيف كانت الأزمات النفسية العنيفة التى عاناها الغزالى عاملا مهما فى التزامه طريق التصوف ، تلك الأزمات ، التى وصفها وصفا دقيقا كالكآبة والحزن وما ترتب عليهما من فقد الشهية وضعف القوى الجسمية والنفسية .

وعلى ذلك نستطيع أن نقرر أن هناك مرحلة هامة تسبق التصوف وهى التى سميناها بمرحلة الاستعداد النفسى الصوفى ، وهذه المرحلة تتركب من عدة حالات وجدانية كالشك والقلق النفسى والكآبة والحزن العميق والخوف من أشياء مجهولة ومحاولة إدراك حقيقة الكون وكشف المحجوب وإحساسات أخرى مبهمة غامضة تنتهى جميعها بواسطة الإيحاء بالاتجاه نحو الله وسلوك طريق التصوف .

ومن ثم فمرحلة الاستعداد النفسى الصوفى هى حالة وجدانية مركبة تبدأ بنوع من القلق النفسى وتنتهى بنوع من الاستقرار النفسى ، وقد تسيطر على المتصوف شهورا طويلة .

(٢) العاطفة الصوفية وتكوينها :

بعد أن يعرف الصوفى فناء الدنيا يلتمس لنفسه حياة أخرى خالدة سعيدة مليئة بالخير والحق والجمال . عندئذ يقبل على العبادة متشوقا إلى الله . وعبادة الصوفية تقوم على الطاعة ، والطاعة تقوم على أساس المحبة ، والمحبة هى مفتاح الأسرار الإلهية . وطريق الصوفية على اختلافهم يقوم بوجه عام على أساس الزهد — وهو مقام من مقامات النفس — والرياضة الروحية والمجاهدة النفسية .

والحب الصوفى هو الحالة الوجدانية التى تصدر عنها سائر الحالات الأخرى ، وهو المحور الرئيسى الذى تدور حوله موضوعات التصوف الإسلامى والمسيحى على السواء .

والحب الصوفى عاطفة تمر بمراحل مختلفة متصلة ، وهذه العاطفة هى حالة شعورية مصحوبة بنشاط متواصل متتابع نتيجة استعداد وجدانى خاص يجعل الصوفى يقوم بسلوك معين إزاء هدفه وهو الوصول إلى الله وإدراك حقيقة الكون .

---

(١) هناك وجه شبه كبير بين الإمام الغزالى وبين القديس أوغسطين فى التزامهما طريق التصوف.

ومما يذكر أن هذه العاطفة مكتسبة وتنمو بتأثير البيئة التى يعيش فيها المتصوف كالخلوة ومجالس الأذكاء أو الاجتماعات التى ينظمها الصوفية أو الأديرة التى يعيش فيها المتصوفة المسيحيون . فهذه البيئات هى بمثابة العوامل التى تعمل على تنمية العاطفة الصوفية وتقويتها . أضف إلى ذلك ما يقوم به الصوفية أنفسهم من التفكير المتصل والتأمل العميق والتجارب الانفعالية المختلفة .

ومن ثم نستطيع أن نقول إن مرحلة الاستعداد النفسى الصوفى تتحول إلى مجموعة ميول قوية مشعور بها نحو هدف معين ، وقد تكون هذه الميول مصحوبة بانفعالات واستجابات مختلفة ، كما يتكيف سلوك المتصوف تبعا لاتجاه هذه الميول . ومما ينبغى أن نقرره بهذا الصدد هو أن العاطفة الصوفية من نوع خاص فهى من العواطف التى تتخذ المثل العليا موضوعا لها .

هذا وقد حاول أحد الصوفية[1] أن يحلل هذه العاطفة الصوفية بأن تتبع مراحلها المختلفة ، فذهب إلى أن لها تسعة مظاهر أولها الميل وهو انجذاب القلب إلى مطلوبه ، ثم إذا قوى هذا الميل أصبح ولعا فإذا اشتد وزاد سمى صبابة ، ومعنى الصبابة أن يسترسل القلب فيمن يحب ، وبعد ذلك يكون الشغف ، ثم إذا استحكم الشغف فى النفس وأخذها عن سائر الأشياء عرف بالهوى ، ثم يشتد فيصبح غراما ثم حبا ، فإذا هاج الحب بحيث يفنى المحبوب عن نفسه سمى ودا ، ثم إذا طفح الود بعد ذلك أصبح عشقا ، وفى هذا المقام يرى العاشق معشوقه ، وهذا هو آخر مقامات الوصول .

ومما يراه أيضا[2] أن العاشق إذا امتحق وانطمس يفنى منه الاسم ثم الوصف ثم الذات ، فلا يبقى عاشق ولا معشوق ، وحينئذ يظهر العاشق بالصورتين ويتصف بالصفتين ، فيسمى بالعاشق كما يسمى بالمعشوق .

وهذا الكلام على إبهامه وغموضه يستفاد منه أن الحب الصوفى يتخذ عدة مظاهر تختلف قوة وضعفا (يلاحظ أيضا أنه قد يختلف الصوفية فى التعبير عن هذه المظاهر لفظا) ، كما أن العاطفة الصوفية قد تتطور أحيانا بحيث يشعر المتصوف بأنه عاشق ومعشوق فى آن واحد ، ويبدو لى أن هذا راجع إلى انعدام

---

(١) انظر كتاب الانسان الكامل في معرفه الأوائل والأواخر لعبد الكريم بن ابراهيم الجيلانى القاهرة ١٣١٦ هـ ص ٤٨ .

(٢) نفس المراجع ص ٤٨ .

شعور الشخص بالأنا ، ويطلق الصوفية على الحالة الوجدانية التى يفقد فيها الشخص شعوره بالأنا حالة الفناء ، وهى فى اصطلاحهم عبارة عن عدم شعور الشخص بنفسه ولا بشىء من لوازمها ، وتعد هذه الحالة آخر مقامات الوصول .

أبو الوفا الغنيمى التفتازانى

سنعود إلى نفس الكلام عن العشق الصوفي في مقالة أخري .